الفصل الثاني

الدروس والعبر المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة أُحُد

(قبل المعركة)

المبحث الأول

الدروس العقائدية

١ ـ موقف كفار قريش من رسالة الهدى والنور نموذج للفجور الوثني العنيد:

يقول الشيخ عرجون: «إن الذين أشركوا بالله آلهة أخرى اتخذوها معبودات لهم مع الله تعالى يدعونها ويتقربون إليها بأنواع القرابين، والذين ألحدوا في آيات الله بالتكذيب والاستهزاء والسخرية فأنكروا وجود الله، وعميت أبصارهم وبصائرهم عن حكمته في نظام الكون ودلالة هذا النظام المحكم على وجوده واقتداره وإطلاق مشيئته وإحاطة علمه ـ يأبون إلا أن يقودوا الحياة بأزمة عقولهم الوثنية القاصرة، ويسوقوها بسياط الكفر والفجور ليجعلوا من أنفسهم حماة للحياة الفاجرة، ويجعلوا من فجورهم طرائق لمسيرة الحياة يوجهونها بمشيئاتهم.

وكان كفَّار قريش ومشركوهم ممن عسَوا في حمأة الوثنية الباغية نموذجًا لهذا الفجور العنيد بوقوفهم أمام دعوة الحق والهدى التي جاءتهم على يد رجل منهم، يعرفون صدقه وأمانته، ويعرفون منبعه ومرباه، ويعرفون مدخله ومخرجه، وغدوه ورواحه، وحركته وسكونه، وأخذه وعطاءه، وسلوكه في الحياة وعشرته مع الناس والأشياء.

فانبعثوا لمناهضة هذه الدعوة الراشدة الهادية التي أرادتهم سدنة لها لتجعل منهم سادة ذادة، يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وقادة يأخذون بزمام الإنسانية إلى آفاق حضارة إيمانية، يبنون دعائمها على قواعد منهج الرسالة الخالدة، ولكن الكفرة ركبوا متن الشيطان غرورًا وعتوًّا، وطغيانًا وكفرًا، فجعلوا من ظهور طلائع الإيمان مهابط لسياط تعذيبهم يصبونه عليهم بلاء ليفتنوهم عن دينهم، حتى أخرجوهم من ديارهم وأموالهم مهاجرين إلى إخوانهم أنصار الله بالمدينة التي صارت عاصمة المجتمع المسلم وقلعته الحصينة التي فيها بناء المجتمع الجديد في تركيبه الاجتماعي المتكافل على دعائم التآخي بين أفراد هذا المجتمع وجماعاته، فكان بهذا التآخي قوة موحدة الوسائل والأهداف، تستطيع أن تواقف أعداء الدعوة إلى الله ورسالة الهدى والنور، مهما بلغ طغيانهم المادي، وقوتهم الخاوية من دوافع الإيمان وأهدافه الإنسانية.

وقد كانت هجرة طلائع الإيمان من السابقين الأوَّلين إلى المدينة غصَّة في قلوب قريش وطواغيتها، أشجت صناديدها، وأثارت في نفوس أشراف جاهليتهم حفائظ الحقد الحانق والغيظ الكظيم، مما جعلهم في همٍّ مقيم مقعد، يفكِّرون ويقدِّرون، ولا هدف لهم في تدبيرهم وتقديرهم إلا القضاء على المجتمع المسلم الجديد الذي سيقضي على تجاراتهم وهي صاعدة نازلة، غادية رائحة، مارَّة على مدينتهم في عيراتها وقوافلها، وفي هذه العيرات والقوافل الأموال التي نهبوها في مكة من المهاجرين، وجعلوها مع أموالهم في تجارتهم.

ولم يكن يغيب عن ملأ أولئك الطغاة من فجَّار الكفر وأحلاس الوثنية الفاجرة أن المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد، وقوته التي كانت ثمرة من ثمرات وحدته الإيمانية ومؤاخاته التكافلية ينام على الضيم مطمئنًا دون أن ينهض ليسترجع أمواله المنهوبة منه، ودون أن يقف في طريق عيراتهم وقوافلهم المحمَّلة بهذه الأموال وغيرها لينتزعها من أيديهم كرهًا وقسرًا، ودون أن يعمل كل ما يستطيع في وضعه الجديد لتكسيد تجاراتهم، وتبوير سعيهم، وكسر شوكتهم المادية المتعززين بها.

وقد كان هذا التصور ـ وهو حقيقة كشف عنها تحفز المجتمع المسلم للوقوف في طريق قوافلهم ليصدَّها عن المرور على مدينته، ويغنم ما فيها من أموال كانت مصدر غرور هؤلاء الفجرة، عملًا بأبسط قواعد الحرب المعمول بها في قانون الحياة الإنسانية ـ يملأ أدمغة أولئك المستكبرين في الأرض، فكان لا بدَّ لهم من الاستعداد لمقاومة هذا المجتمع المسلم وفتح الطريق أمام عيراتهم وقوافلهم، وحمايتها بقوة السلاح». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٥٤٣-٥٤٥].

٢ ـ العنجهية والكبرياء الجاهلي:

يقول أ/ خلف الله: «خرجت قريش بعنجهيتها وخيلائها وكبريائها وجاهليتها تقطع الفيافي تريد محاربة الله تعالى! ولمه؟ لأن الله تعالى أرسل رسول الله ﷺ ليحرر الناس من العبودية لغير الله، ويخلصهم من الهُبَل والعُزَّى والأصنام، ويهديهم بإذن الله سبل السلام، ويدعوهم إلى مكارم الأخلاق ويقرر قواعد الإنسانية المتهدمة على أسس راسخة قوية أصلها ثابت وفرعها في السماء.

عَزَّ على المشركين أن تنسف الدعوة المحمدية آلهتهم وتحطم جاهليتهم الأثيرة عندهم وأن تهاجم دخائل نفوسهم فتطالبهم بالطهارة من كل رجس والخروج عن كل خبث، لقد صَبَّ المشركون العذاب على المسلمين صبًّا حين كانوا بمكة حتى هاجروا منها واستولوا على أموالهم، ولم يتركوهم بعد هجرتهم وشأنهم، بل قرروا إبادتهم، إذ وجدوا أن صوت رسول الله ﷺ في المدينة يؤرقهم وينفي الكرى عنهم وهم في مكة، ذلكم الصوت الرحيم الذي يدعو الخلق إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وينادي بالأخوة والمساواة ويعلن عن حقوق الإنسان الأصيلة بقوة لم تُعرف من قبل ولا من بعد، فلا فرق بين

عربي وعجمي إلا بالتقوى، فلا سيد ولا مسود ولا استغلال ولا ظلم ولا ذل ولا استعباد، ولا استبداد ولا فوضى ولا أنانية ولا كبرياء ولا نهب ولا سلب، ولا طمع ولا محاباة، هذه التعاليم لم تستسغها النفوس المريضة؛ لأنها كانت ضربة موجهة إلى صميم نظم المشركين السياسية والاقتصادية والاجتماعية فناصب كبارهم هذه التعاليم العداء؛ لأنها تجردهم مما يتمتعون به من امتيازات ومركز أدبي بين قومهم وتجعلهم أشخاصًا عاديين لا فرق بينهم وبين عبيدهم.

لذا وجد المشركون أن بقاءهم منوط بمحو الدعوة الإسلامية وحرمان المسلمين من إيمانهم بالله ورسوله ﷺ وهيهات هيهات أن يتم لهم ذلك، وقد جربوا بأنفسهم، ألم يُعذِّبوا الضعفاء بإلقائهم على الأحجار المحماة وجلدهم بالسياط وتعذيبهم في حَمَّارة القيظ المحرق مع حرمانهم الطعام والشراب! ومع ذلك كان الواحد منهم يقول: أَحد.. أَحد ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة].

إن أكبر الكبائر الإشراك بالله تعالى؛ ذلك لأن الشرك ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض، وحُجُب متلاطمة لا يقر لها قرار، فهو يجعل الإنسان عبدًا للمخلوق، وهو لا يعبد المخلوق إلا جلبًا لفائدة أو دفعًا لضرر فهو في الواقع عبد لمصلحته وبالتالي هو عبد لنفسه! وعبادة النفس معناها أن الشخص غير صالح ليكون عضوًا كريمًا عاملًا على الرقي بالجماعة الإنسانية محققًا لسعادتها، بل هو على الضد من ذلك يكون عدوًّا للإنسانية هادمًا لأركانها ساعيًا في شقائها دون أن يدري، إذ إن الشرك يقلب الأوضاع، فيجعل الحق باطلًا، والباطل حقًّا، والخالق مخلوقًا، والمخلوق خالقًا، وعلى هذا الأساس لا يمكن تبني قواعد الجماعات على أسس سليمة؛ ذلك أن العلاقات الإنسانية تكون مبنية على مستلزمات الشرك وهي الجشع والتربص والحقد والكذب وسفك الدماء والعدوان والاستعباد والإذلال، والبناء السياسي يكون أساسه استبداد فريق بفريق، والاقتصادي يبنى على أساس استغلال فئة لأخرى، والاجتماعي على أساس تفوق طائفة على طائفة، وتكون العلاقات بين الجماعات البشرية مبنية على الإرهاب والتهديد والقوة، فالقوي يأكل الضعيف، كل ذلك يؤدي إلى انفراط نظام العقد الإنساني الذي يتحول إلى فوضى لا ضابط لها ولا رابط، يسودها الخوف ويخيم عليها القلق وتتخللها الحروب التي لا تنتهي والتي تسببها الأطماع التي لا تنتهي، وحينئذ تصبح الحياة شقاءً لا سعادة فيه وجحيمًا لا يُطاق يعذب فيه البشر بعضهم بعضًا، وهيهات أن يسعد مشرك لسبب بسيط، وهو أن عذابه من داخله لا من الخارج، إن الذي يقوم بتعذيبه نفسه التي بين جنبيه فإلى أين يفر منها؟...

إن السعادة ليست في الحياة ولا في السلطان ولا في المال ولا في البنين، وكم رأينا وسمعنا عن

أشخاص توفر لهم كل ذلك وكانوا يَشْكُون باستمرار من شقائهم المقيم، لقد بحثوا ونقَّبوا عن السعادة في جميع مآرب النفس وملذاتها فلم يفلحوا في الوصول إليها بل كان الشقاء في انتظارهم كلما فرغوا من لذة عاد إليهم وسرى في عروقهم وتجدد لهم بدل العذاب عذابان فيسرعون إلى لذة أخرى تُنسيهم شقاءهم وهكذا: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج].

إن هذا الذي فعله المشركون مع رسول الله ﷺ لم ينته بعد، بل هو موجود في كل وقت طالما وُجد الشرك على سطح الأرض، فهناك نفوس مظلمة مكابرة لا تعترف بحق ولا تريد أن تقوم بواجب، همُّها الإيذاء والاعتداء والتنعم بسلب الغير، وهناك دول بأسرها لا يمكنها أن تعيش إلا على أشلاء البشر، إنها تطحن حريات الآخرين لتصنع حريتها، وتجرِّد الشعوب من الحقوق لتحتكر حقوق الإنسان لنفسها، وتحرمهم من القوت لتنعم هي بطيب العيش ولذة الحياة، وتحشد قوات التدمير والهلاك وترسلها على الشعوب لتكبلها بأغلال العبودية والتبعية لها، وقد شاهدنا ورأينا بأعيننا أفعالهم كما سمعنا عن جرائمهم التي تقشعر لها الأبدان ومع ذلك يدَّعون زورًا وبهتانًا أنهم حماة الإنسانية، ألا ساء ما يحكمون.

وبعد: فإن تكامل الذات يتوقف على درجة قبولها لبعض جوانب الحقيقة أو لها كلها دون خضوع لضغط أو انقياد لتقاليد موروثة أو مجاراة لمألوف، ولا يكون قبول الذات للحقائق كاملًا إلا إذا امتلأت بالإيمان بالله تعالى واستضاءت جوانبها بمعرفته، وما ينطبق على الفرد ينطبق على المجموع، إذ يستحيل أن يتحقق وجود الجماعة المتكاملة إلا إذا كان أفرادها من هذا النوع، فالإيمان بالله تعالى هو الأساس الوحيد لبناء القيم الإنسانية والعلاقات الإنسانية على أسس من التفاعل البيولوجي المتكامل الذي يحقق للأفراد أكبر قسط من سعادتهم.

وها هو العالم الآن لا يستقر على قيم ثابتة يبني عليها الناس سلوكهم وعلاقاتهم، فهم متخبط ما بين قديم وجديد ومخضرم، وفي كل جيل تنهدم قيم وتقوم أخرى، والبشر يقتربون في هدمهم وبنائهم من الفطرة، وسواء اقترب البعض أم ابتعد فهيهات أن تستقر قيم ما غابت معرفة الله تعالى عن القلوب وما ضعف الإيمان أو انعدم.

لقد بيَّن رسول الله ﷺ للناس سبل السعادة الحقة، فلم يترك طريقًا يقرب إليها إلا وقد أمر به، ولم يترك سببًا يقرِّب إلى الشقاء إلا وقد نهى عنه، اللهم إنه قد بلَّغ، وبلِّغ الحاضر من صحبه الغائب.

ومع ذلك قُتل الإنسان ما أكفره! ها هم المشركون يخرجون لقتاله ﷺ ويتشوقون إلى التمثيل بأصحابه، وها هي هند كلما مرت بوحشي تقول له: (يا أبا دسمه أشف واستشف) وممن؟! من عم رسول الله ﷺ وأسد الله الحمزة بن عبد المطلب ﷺ.

ولله در حسان ثابت ﷺ إذ يقول في خروج قريش:

سُقْتُمْ كِنَانَةَ جَهْلًا مِنْ سَفَاهَتِكُمْ ... إِلَى الرَّسُولِ فَجُنْدُ الله مُخْزِيهَا
أَوْرَدْتُمُوهَا حِيَاضَ المَوْتِ ضَاحِيَةً ... فَالنَّارُ مَوْعِدُهَا، وَالقَتْلُ لَاقِيهَا (١)
جَمَّعْتُمُوهُمْ أَحَابِيشًا بِلا حَسَبٍ ... أَئِمَّةَ الكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاغِيهَا (٢)
أَلا اعْتَبَرْتُمْ بِخَيْلِ الله إِذْ قَتَلَتْ ... أَهْلَ القَلِيبِ وَمَنْ أَلْقَيْنَهُ فِيهَا؟! (٣)
كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَكْنَاهُ بِلا ثَمَنٍ ... وَجَزِّ نَاصِيَةٍ كُنَّا مَوَالِيهَا (٤)

[غزوة أُحد لخلف الله ٤٣-٤٦].

٣ ـ حقيقة موقف أهل الكتاب من أهل الإيمان:

يقول أ/ النجيري: «ربط الله تعالى بين موقف أُحُد الذي تعرض فيه المسلمون للابتلاء وموقف أهل الكتاب، فبيَّن موقفهم من أهل الإيمان حين يرونهم في حال الامتحان، فقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران].

وهذا تعبير عن مكنون الصدور بما فيها من حقد وبغض شديد وضحه الله بقوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران].

ونرى من ذلك صورة المخادعة والتظاهر من بعضهم بالإيمان وما تُكن صدورهم إلا الضغينة والكره.

ولقد أرادت كتيبة حسنة الإعداد من يهود من حلفاء ابن أُبي أن تلحق بالمسلمين حين بلغوا رأس الثنية في طريقهم إلى أُحد لتنضم إليهم، ولكن النبي ﷺ رفض ذلك برغم قلة عدد جيشه، وقال: «**لا نَسْتَنْصِرُ بِأَهْلِ الشِّرْكِ عَلَى أَهْلِ الشِّرْكِ**»، كما أن الأنصار في هذا اليوم قالوا لِرَسُولِ الله ﷺ: **يَا رَسُولَ الله! أَلا نَسْتَعِينُ بِحُلَفَائِنَا مِنْ يَهُودَ؟** فَقَالَ ﷺ: «**لَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِمْ**».

[ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٩٣، طبقات ابن سعد ٢/ ١ / ٢٧١].

وكان ذلك تعبيرًا عن قول الحق ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) **حِيَاض**: جمع حوض. **الضاحية**: البارزة للشمس.

(٢) **حَسَب**: الشرف. **الطواغي**: جمع طاغية، وهو المتكبر المتمرد.

(٣) **أهلَ القَلِيب**: من قتل ببدر من المشركين.

(٤) **مَوَالِيها**: أهل النعمة عليها.

وتُبين هذه الآيات في جلاء أن أهل الكتاب كان موقفهم في أُحد هو:

ـ الاجتهاد في إحداث الاضطراب في الصف المسلم والانشقاق للجماعة المسلمة.

ـ رغبتهم الشديدة في إرهاق المسلمين وإعناتهم.

ـ ظهور العداوة من مقالاتهم برغم محاولاتهم مداراة المسلمين.

ـ تُكِنُّ صدورُهم أعظم مشاعر البغض والحقد على المسلمين.

ـ خديعتهم المسلمين حتى إنهم يُظهرون لهم المحبة والإيمان والتسامح والتعاون والتآزر، فينالوا من المسلمين المحبة والإحسان والعهود، مع أن صدورهم تتحرق كمدًا وغيظًا مما بالمسلمين من خير يودون أن يزول.

ـ وهم يحبون ألا «يمس» المؤمنين خير، فإذا نزل الضر سُرُّوا بذلك، ولم تُخف ألسنتهم الشماتة والزراية.

ـ وهم يتحينون الفرص ويدبرون لمكيدة أهل الإيمان، ولكن الله تعالى من ورائهم، وهو يحيط بكيدهم.

ـ ولا ينقطع تثبيطهم وصرفهم المؤمنين عن الخروج في سبيل الله تعالى، ويبين ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾ [آل عمران].

وهذا البيان الذي أورده القرآن الكريم لموقف أهل الكتاب من أهل الإيمان في بدء الحديث عن غزوة أُحُد، هو موقف ثابت أراد الله تعالى أن يلفت الأنظار والعقول لما فيه من عبر ودروس في كل موقف يمر به المؤمنون: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران].

وتأتي الآيات بعد ذلك لتحذر مرة أخرى من متابعة الكافرين وموالاتهم؛ لأنه سبب الخسران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ [آل عمران].

وبرغم كل ذلك فإن مِنْ أهل الكتاب مَنْ في قلبه الخير والوفاء، وقد ظهر ذلك في موقف أحد اليهود ويُدعى **مُخَيْرِيق**، فقد كان النبي ﷺ قد عقد عهدًا مع يهود المدينة للتناصر وعدم الاعتداء والتعاون في الدفاع عن المدينة، وكان النبي ﷺ يرمي من وراء ذلك إلى تأمين ظهره وكف يد يهود عن أن تتآمر مع أعدائه، ولم يكن يريد منهم أن يخرجوا معه في جيشه، ولم يثبت عنه ﷺ أنه استعان بهم في غزوة، إلا أن مخيريق (وهو أحد بني ثعلبة بن الفطيون) دعا قومه إلى نصر رسول ﷺ وقال لهم: والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم حق واجب، فقالوا له معتذرين: إن اليوم السبت، فقال: لا سبت لكم، وأخذ سلاحه ولحق برسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قُتل، وأوصى أن يكون ماله لرسول الله ﷺ

يصنع فيه ما يشاء، ويقال إن بعض صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة من مال مخيريق». [ينظر: تاريخ الطبري ٢/ ٥٣١، والمغازي للواقدي ١/ ٢٦٣، والسيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٢٩]. [البلاء الإلهي للنجيري ١٠١-١٠٦].

٤ ـ تأصل عداوة اليهود للمسلمين:

يقول أ/ خلف الله: «وهنا نتساءل: هل كان في استطاعة اليهود أن يعيشوا في سلام دائم في ظل الرسالة المحمدية الخالدة؟ الجواب: لا؛ ذلك أن نفسية الغالبية من اليهود قد جُبلت على طباع يستحيل عليهم أن يعدلوا عنها، وها هم المسلمون قد كتبوا لهم صحيفة نصت على أن لليهود ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ومع ذلك لم يكفوا عن الكيد للمسلمين وممالأة أعدائهم بل وإغراء القبائل بهم.

لقد كانت لهم الزعامة الاقتصادية والسياسية في شمال الحجاز، فلما جاء رسول الله ﷺ أصبح صاحب الرأي الأعلى في شؤون المدينة وما جاورها، كما أن المهاجرين ـ ولا ننسى أنهم قرشيون ـ حذقوا التجارة ومرنوا على أساليبها وعرفوا أسرارها، وسرعان ما بدأوا في تحرير المدينة من سيطرة اليهود الاقتصادية، بل نافسوا اليهود منافسة شريفة هدَّدت مركزهم التجاري الاحتكاري؛ لذا عقد اليهود النية على التخلص من المسلمين أو إخضاعهم لسلطانهم بطرقهم الخاصة وأهمها تأليب العرب عليهم.

ولما انتصر المسلمون في بدر ازداد حنق اليهود ولم يستطيعوا كتمان حقدهم فأخذوا يجاهرون بالعداوة والبغضاء، وأول من جاهر بها هم يهود بني قينقاع إذ كانوا يقيمون داخل المدينة نفسها ويظهر تبجحهم من خطابهم لرسول الله ﷺ بقولهم: **«يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ تَرَى أَنَّا قَوْمُكَ! لَا يَغُرَّنَّكَ أَنَّكَ لَقِيتُ قَوْمًا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ، فَأَصَبْتَ مِنْهُمْ فُرْصَةً، إِنَّا وَاللهِ لَئِنْ حَارَبْنَاكَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّا نَحْنُ النَّاسَ»**.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٧، السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٥].

واتضح من تصرفاتهم وسلوكهم أنهم لا يطيقون وجود المسلمين بالمدينة فكان لابد من إجلائهم عنها، وقد تم ذلك في شوال سنة ٢هـ.

ويجب أن نَذكر كلمة عن تطور الأفكار والتعاليم اليهودية قبل البعثة المحمدية إذا أردنا أن نفهم نفسيتهم.

وضع أسس الصهيونية قبل البعثة المحمدية:

نبذة من تعاليم وتقاليد اليهود الذين بدلوا التوراة: فمن الناحية السياسية نجد أن هذا النوع من اليهود لا يعرف الخضوع لحدود المعايشة السلمية لمواطن، ولا يعترف بمبدأ التزامات المواطنة ومسؤولياتها، وإنما هم يتصرفون تصرفات يبدو فيها من الضعف ما يثير الرحمة، فإذا ما قدروا بطشوا بطشة الجبارين، وهم في ضعفهم إنما يلتمسون الطريق إلى السيطرة والاستغلال، وقد وصف شريدان الأمة اليهودية بقوله: (إنها تطأطئ الرأس لتغزو).

(ومن ثم كان رد الفعل الذي يكاد يكون واحدًا بين شعوب الأرض التي عرفت بني إسرائيل: فتلك الشعوب التي آوتهم في بلادهم وأكرمت أول الأمر لقاءهم في ضعفهم، فلما أساؤوا إلى أصحاب البلاد الأصليين بأن عاشوا في عزلة لا يشاركون في مسؤوليات الوطن المشتركة، بل يحتفظون لأنفسهم بالغُنم وعلى سواهم الغُرم، ويقودون حياتهم كما ورثوا أسلوبها عن آبائهم دون اندماج في مواطنة حقة، ويترقبون الفرص لاقتناص أسباب الاستقلال والسيطرة، لم تجد تلك الشعوب سبيلًا إزاء هذا السلوك الشاذ سوى الانتقاض عليهم). [**الصهيونية في المجال الدولي ـ د/ محمد عبد المعز نصر ص ٣٥**].

ومن الناحية الدينية نجد أن هذا النوع من اليهود يمتلئ حقدًا على جميع الأديان، فهم الذين أثاروا أباطرة الرومان وسلطوهم على ذبح المسيحيين أينما ثقفوا حتى جرت الدماء أنهارًا خلال الاضطهادات الدينية المروعة، فقبل الهجرة المحمدية بخمسة قرون قام اليهود في عهد الحاخام إكيبا سنة ١١٥م والذي يسمونه (أبا السنة التلمودية) بذبح مائتي ألف مسيحي في ليبيا و٢٤٠ ألف ما بين مسيحي ووثني في قبرص، ولم تقف هذه المذابح حتى أخمد الإمبراطور الروماني تراجان ثورتهم، وفي سنة ١٣٤م قاموا بمذابح واسعة النطاق راح ضحيتها مئات الألوف من غير اليهود.

ويبذل هذا النوع من اليهود ما في وسعه للتشكيك في الأديان وفي العقائد، بل إنهم في عهد رسول الله ﷺ كانوا يدسُّون الأسئلة لتشكيك المسلمين فألجمهم رسول الله ﷺ وكبتهم، وكان يبين شبههم ويوضحها بصدر رحب، ولم ينته ذلك بل إنهم فيما بعد دسوا كثيرًا من أساطيرهم في كتب المسلمين وهي المعروفة بالإسرائيليات للتشكيك في الشريعة المحمدية، ولهم براعة سابقة في ذلك، فقد غيروا ما جاء به موسى عليه السلام حتى لم يبق منه إلا الاسم، واختلطت في أذهانهم فكرة الألوهية حتى حولوها إلى عبادة الغرور الإنساني والتفوق الجنسي، وقالوا: إنهم خُلقوا من مادة الإله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرًا، ويقولون: إن الله يحقد على غير اليهود، وإن أكبر الكبائر عند الله هي العطف على (جوييم) أي غير اليهود.

وسجلوا ذلك في أساطير سموها بالتلمود أو (سيفرهزوهار)، وأول من قام بهذا العمل حبر من أكبر أحبارهم اسمه (يهوذا القديس) الذي عاش في القرن الثالث الميلادي وقد قضى ثلاثين عامًا في كتابة (المشنا) التي تعتبر أساسًا للتلمود المقدس، وتوفر الأحبار من بعده فرادى وجماعات على تكميله حتى قرب من تمامه في القرن الرابع أو الخامس الميلادي ـ قبل البعثة المحمدية بمدة تقرب من قرنين ـ وقام يهود بابل بكتابة (الجمارا) وشروحها، وهي نواة التلمود البابلي، ومن هذين المؤلفين يتكون التلمود الذي لا يمكن فصله عن تفكير هذه الطائفة من اليهود ولا فصل التفكير اليهودي عنه.

[ننصح لمن يريد تفصيل هذا الموضوع بالاطلاع على كتاب: العدوان الثلاثي على مصر ـ في مقال للدكتور محمد القصاص بعنوان: الإسرائيليون وروح العدوان ص ٨٠ – ١٠٧].

وقد نص التلمود على أنه (لا يصح التعامل مع شخص يملك نسخة من التوراة وليس لديه نسخة من التلمود)، (أي بني! أطع كلام التلمود ونصائح الربانيين أكثر من إطاعتك لكلام التوراة!)، وقالوا: إن موسى عليه السلام أُنزلت عليه التوراة والتلمود فجعل التلمود وهو خير الكتابين يُحفظ بطريق الرواية الشفوية حتى لا يطلع عليه غير اليهود.

أما من الناحية الاجتماعية فهؤلاء يؤمنون بنظرية (العنصر المتفوق) الذي اختاره الله من بين جميع أجناس البشر، واعتقدوا أنه لو لم يوجد اليهود لغاضت البركة من الأرض وانطفأ نور الشمس وكف المطر عن النزول.

وفي نظرة اليهود إلى غيرهم يقول الحبر ابرافانيل: (الشعب اليهودي جدير بحياة الخلود، أما الشعوب الأخرى فإنها أشبه شيء بالحمير).

ويقول الحبر منياجيم: (يا معاشر اليهود إنكم أنتم البشر، أما الشعوب أخرى فليسوا من البشر في شيء إذ إن نفوسهم آتية من روح نجسة، أما نفوس اليهود فمصدرها روح الله المقدسة!).

وعلى أساس هذا الاختلاف الجوهري بين اليهود (الذي هو إنسان)، وغير اليهودي (الذي هو حيوان) تقوم الأخلاق التلمودية بأسرها؛ ولذا يعفي التلمودُ اليهوديَّ من التمسك بالعهود والوعود مع غيرهم، ويبيح لهم الغدر والحنث ما دامت مصلحتهم تقتضي ذلك.

ولكي يحققوا نظرية التفوق لم يحجموا عن القيام بنشر الفساد والانحلال بين الأفراد والجماعات حتى إذا ما عم الفساد أذلوا العباد وأصبحوا سادة العالم أجمع طبقًا لنظريتهم المقدسة.

وكان الإسلام أول من كشف الستار عن تعاليم اليهود السرية التلمودية، ولم تطبع هذه التعاليم وتصبح في متناول الباحث إلا بعد انتشار الطباعة في أوربا فطبعت سنة ١٥٢٠م في اثني عشر مجلدًا.

هذا هو السر في عدم استطاعة اليهود مجاورة النبي ﷺ في المدينة بالرغم من كل الضمانات الكافية التي قُدمت للمحافظة عليهم.

وها هو العالم اليوم يشكو من الصهيونيين ومن مؤامراتهم التي تهدد اقتصاديات الدول، ومن تلاعبهم بالعلاقة الدولية السياسية إلى درجة تهدد بقيام حرب عالمية ثالثة.

وقد وجد هتلر حين أراد النهوض بألمانيا أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا طالما وُجد صهيوني داخل بلاده، فتخلص منهم وشرَّدهم من ألمانيا، ولم يكن هتلر مبتكرًا في سياسته إزاءهم، بل إن كل دولة قاست منهم فعلت معهم نفس هذه الخطة». [غزوة أُحد لخلف الله ٢٣-٢٧].

ويقول الشيخ أبو خوات: «قد يتساءل المعنيون بقضية فلسطين بعد أن يستبد بهم الضيق من مجرد التفكير في الأحداث المتتابعة منذ أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والتي انتهت أخيرًا بتوطين

اليهود في فلسطين أرض العرب ومسرى رسول الإسلام ﷺ، ومهبط وحي أكثر الأنبياء، قد يتساءلون عن السبب في اختيار فلسطين بالذات ورفض أوغندا مثلًا أو استراليا أو غيرهما من الأماكن التي كان يمكن لليهود أن يعمروها، ويعيشوا فيها في سلام، قد يتساءلون عن ذلك بعد أن يرفضوا ـ في ذكاء ـ ما ترده أبواقهم وأبواق سادتهم من المستعمرين من دعوى الوعد بأرض فلسطين لليهود، وبعد أن يناقشوا هذه الدعوى مناقشة تؤدي إلى التساؤل عمن أصدر الوعد لهم، وعمن صدر لهم الوعد، وعن مدى قدرة الواعد على تحقيق وعده المطلق أو المشروط حتى لا يحققه لهم إلا عن طريق معصيته والفجور في معاملة الناس، وفي عصر وايزمان وبن جوريون وموشى ديان، حَمَلَة تلك الأسماء التي كنت أود ألا أدنس صفحات هذا الكتاب بذكرها فيها.

أقول: قد يتساءل الدارسون لقضية فلسطين بعد مناقشة ذلك كله عن السبب في الإصرار على توطين اليهود والتمكين لهم في فلسطين بالذات والقيام بتشجيع هجرتهم من كل مكان إليها وبحشد أشدهم شراسة وتطرفًا وإمدادهم ـ وهم ما يزالون مواطنين في دولة عربية تحت الانتداب ـ بكل أسباب القوة والتفوق على العرب، وإغرائهم بشن الحروب والغارات عليهم تعميقًا للعداوة بينهم مما لم يحدث له ـ فيما نعلم ـ مثيل في التاريخ، ولو أن هؤلاء المتسائلين درسوا قضية اليهود في يثرب بعد الهجرة وظهور الإسلام، ودرسوا مدى شهوة الانتقام والإذلال والفتك والإبادة عند الغرب المسيحي بالنسبة لكل ما يتصل بالإسلام والعروبة بسبب، لكان لهم رأي آخر مستمد من ملاحظة هذه الأحداث كلها، فلقد شبع الغرب المسيحي في المسلمين إيذاء وتقتيلًا وفتكًا على يد الإسبان تارة، وبوساطة ما اخترعوه من حرب صليبية قذرة نسبوها إلى الصليب المقدس عندهم ظلمًا، ثم أخيرًا على يد الفرنسيين والطليان والإنجليز وغيرهم تارة أخرى، ومع ذلك لم يبيدوا الجنس ولم يقضوا على الدين، وإن كانوا قد بلغوا من ذينك بعض ما يريدون، وبالدراسة التاريخية الواعية والذكاء الخارق أصروا على أن يتركوا هذه المهمة أمانة بين يدي اليهود بعد أن يزرعوهم في مكانهم ذلك، مستغلين ما يعرفون من تأصل العداء بين اليهود والمسلمين بالذات، وما استقر في نفس دهماء اليهود من دعوى الوعد المزعوم، وما يوجد من شوق في نفس زعماء اليهود للتوطن في وطن خاص ككل شعوب الأرض، وبهذه الطريقة يستريح الغرب المسيحي من بكاء اليهود على أبوابه ورجائهم العون لتوطينهم في وطن يجمع شملهم بعد تفرق دام آلاف السنين كما يتحقق بأقل الجهد والتكاليف ما كان يريده ويباشره بنفسه من استنفاد لكل جهد عربي أو تَقَدُّم إسلامي، وفي هذا المجال ينسى أمورًا لا تُنسى، منها ما يعتقده كل مسيحي من أن اليهود هم قتلة المسيح وصالبوه ومتهموا أمه بكل ما لا يُستطاع سماعه، ومنها أنه وقف في وجه كل دولة إسلامية تريد أن تسجل في دستورها الممنوح أنها دولة إسلامية، مدعيًا أن إقامة دولة على أساس الدين لا يناسب روح

العصر، أما إسرائيل فلها وحدها أن تقوم على أساس الدين والعنصرية جميعًا وبيد الغرب المسيحي نفسه، ولعل هذا العون هو حبل الناس، وحبل الناس كما نراه سريع التمزق والانقطاع، وإذا انقطع مدد الناس لليهود فلن تكون إسرائيل.

أُقدِّم بهذا كله بين يدي الدروس المستفادة من أحداث غزوة أحد، بعد أن استوعبت الدور القذر الذي كان يلعبه اليهود على مسرح الحوادث في تلك الفترة التي تلت نصر الله في بدر وامتدت حتى غزوة أُحد، ومما ملأني يقينًا بأن دور اليهود دائمًا هو التأليب والدس والوقيعة، وبأنه لو لم يكن لليهود وجود في يثرب حين وقوع هذه الغزوات لتغير وجه التاريخ الإسلامي، ولكن هكذا أراد الله لتظل لهذه الأمة دعوة الجهاد في سبيله إلى أن يشاء ما يشاء.

فلقد حدث يوم نَصر الله في بدر أن أرسل رسول الله ﷺ رجلين من أصحابه بشيرين لأهل العالية وأهل السافلة من المدينة، وكان اليهود مقيمين في يثرب وحولها، ودخلها المسلمون وأبقوا عليهم فيها بعد عقد معاهدة مع كل قبيلة من قبائلهم الثلاث الكبرى: **بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة**، ولقد كان من أغنى وأشهر زعمائهم في ذلك الوقت رجل يسمى **(كعب بن الأشرف)** وكان من المأمول أن يشارك اليهودُ المسلمين فرحتهم بهذا النصر وبالقضاء على صناديد الكفر والشرك بالله الذي يؤمن به اليهود والمسلمون جميعًا، ولكن حقد اليهود على المسلمين أعمى بصائرهم عن الإحساس بهذا الشعور الديني المنتظر، فبدا من تصرفاتهم ومن أقوالهم ما يدل على حزنهم وأسفهم لنصر المسلمين على المشركين، وراح كعب بن الأشرف هذا وكثيرون غيره يقولون: **والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء الأشراف والملوك، لبطن الأرض خير من ظهرها**، وجعل كعب هذا ـ وكان شاعرًا ـ يقول الشعر في هجاء المسلمين ورثاء قتلى بدر والتشبيب بنساء المسلمين، ثم سافر ومعه وفد كبير من يهود لمواساة أهل القتلى في مكة وحثهم بما في شعره من حماسة وتشجيع على أخذ الثأر والاستعداد لحرب أخرى، واعدًا المشركين بأن اليهود سيكونون معهم على المسلمين.

وهكذا نلمس العداء المتأصل في نفوس اليهود للمسلمين حقدًا وبغيًا وخوفًا من ظهور الإسلام على اليهودية في بلاد العرب منذ تلك الأيام الضاربة في أعماق التاريخ بين اليهودية والإسلام، فرغم الاتفاق في الإيمان بإله واحد والنبوات واليوم الآخر نجدهم لا يقر لهم قرار ولا يهدأ لهم بال إذا حصل المسلمون على أي خير، وإذا كانت تلك حالهم قديمًا فقد كانت نتيجتها أن قضى المسلمون عليهم وخلصت بلاد العرب للعرب والمسلمين، وإذا كانت تلك حالهم مع العرب والمسلمين حديثًا فكثيرًا ما يعيد التاريخ نفسه، وأرى أن تباشير ذلك قد أقبلت من قريب، ولا تحتاج منا لتحقيقها إلا أن نحاول أن نكون كما كان أسلافنا حقًّا مسلمين.

تلك عبرة عابرة ودرس يجب استيعابه والانفعال به تُعلمنا إياه أحداث غزوة أُحد عند النظر في الفترة التي كانت بين انتهاء بدر بالنصر وقيام أُحد بما فيها من دروس.

وفي هذه المعاني كلها يقول تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ﴾ [المائدة: ٨٢]، ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران].

وكان من عقابهم الدائم الذي استحقوه في أصولهم بسبب مخالفة الأنبياء وقتلهم، واستحقته فروعهم بسبب عنادهم وكفرهم برسول الله ﷺ وبالقرآن رغم معرفتهم صدقهما، كان عقابهم ذلك النداء الصارخ الدائم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف]». [**دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٣١-٣٧**].

٥ ـ وسائل الحرب على الإسلام:

يقول أ/ عبَّاد: «الأعداء في جميع العصور يستخدمون جميع الطرق والوسائل لحرب الإسلام ويضحون بالنفيس والغالي وينقضون العهود من أجل ذلك، فكما يجهزون الآلة العسكرية والقوة البشرية، يؤججون المشاعر والأحاسيس بالشعر والخطابة والوعود والمكافآت المغرية؛ لأن وجود الإسلام رعب لأعدائه وحرب على الباطل والبغي والفساد؛ لذا فهم يرصدون لأهله وحامليه ليفتنوهم عنه، وتتنوع وسائل حربهم وأدواتها وإن كان هدفهم يظل ثابتًا وهو أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم ـ إن استطاعوا ـ فلتحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ﴾ [البقرة: ٢١٧]». [**مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ١٨**].

٦ ـ إثبات نبوة النبي ﷺ:

يقول أ/ عبَّاد: «في دفع النبي ﷺ الكتاب لأُبي بن كعب رضي الله عنه ليقرأه دليل يؤيد أن النبي ﷺ كان أميًا، بمعنى أنه ما كان يعرف القراءة ولا الكتابة، وإلا لقرأ الكتاب بنفسه وكتم سره، بدلًا من أن يطلب من أُبي بن كعب رضي الله عنه تلاوته ثم يستكتمه.

وهذا أصل معجزة الرسول الأمي ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة]، فكيف للأمي أن يتحدث عن خلق السموات والأرض: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ

شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء]، وعن خلق وتطورات الجنين في الرحم قبل أن يعرفها التشريح وتكتشفها المجاهر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]، وعن علم الزروع والثمار: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر].

فهل يمكن لبشر مهما أُوتي من الفصاحة والعلم والحكمة والمعرفة أن يجتمع عنده بعض ما جاء به القرآن؟ وكيف يصل إلى حقائق لم تعرفها البشرية ولا الدراسات العلمية إلا بعد اكتشاف الأجهزة والآلات بعد نزول القرآن بأربعة عشر قرنًا؟ وكيف يقرر حقوقًا وواجبات في زمن لم تكن تعرف فيه الحقوق ولا الواجبات ثم يظل ما جاء به فوق مستوى كل قانون أو تشريع على الدوام؟ فكيف إذا كان من نطق بهذا كله أميًّا لا يقرأ ولا يكتب؟ إن أمية الرسول ﷺ ليست في حاجة إلى أدلة لتأكيدها أو شواهد لإيضاحها بعد أن أكد ذلك الخالق في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

فما أعظمه هذا الأمي الذي علَّم وسيعلم الدنيا كلها وإلى أن تقوم الساعة، وقد قال (بورت سميث): من حُسن حظ التاريخ أن محمدًا أسس في وقت واحد ثلاثة أشياء من عظائم الأمور وجلائل الأعمال: فإنه مؤسس لأمة، وإمبراطورية، وديانة، ومع أنه أمي فقد جاء بكتاب هو آية في البلاغة ودستور للشرائع وللصلاة والدين في آن واحد، وهو الكتاب المقدس إلى هذا اليوم عند سُدس العالم، وهو معجزة محمد القوية، وحقًّا إنه لمعجزة: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت]».

[مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٢٤-٢٦].

٧ ـ لماذا لم يعمل النبي ﷺ بالرؤيا التي رآها مع أن رؤيا الأنبياء ـ عليهم السلام ـ حق ووحي؟:

يقول الشيخ عرجون: «وقد أورد الزرقاني في شرحه مواهب القسطلاني سؤالًا، وأجاب عنه فقال: فإن قيل لم عدل ﷺ عن رأيه ولا أسدَّ منه، وقد وافقه عليه أكابر المهاجرين والأنصار وابن أُبي وإن كان منافقًا لكنه من الكبار المجرِّبين للأمور؛ ولذا أحضره ﷺ واستشاره ـ إلى رأي هؤلاء الأحداث؟

قلت: لأنه ﷺ مأمور بالجهاد، خصوصًا وقد فجأهم العدو، فلما رأى تصميم أولئك على الخروج، ولا سيما وقد وافقهم بعض الأكابر من المهاجرين كحمزة رضي الله عنه، والأنصار كابن عبادة رضي الله عنه، ترجَّح عنده موافقة رأيهم، وإن كرهه ابتداء ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

قال الزرقاني: وهذا ظهر لي، ولم أره لأحد.

وهذا الذي ظهر للعلامة الزرقاني ولم يره لأحد من العلماء والأئمة قبله يحتاج إلى نظر وبحث؛ لأن النبي ﷺ لم يطلب من أصحابه المكث بالمدينة وعدم الخروج عنها لمقاتلة أعدائه خارجها رأيًا اجتهاديًّا، وإنما هو تبليغ لما أُوحي إليه في رؤياه المنامية التي رآها وأوَّلها وبلَّغها لأصحابه، ورؤيا الأنبياء وحي بإجماع الأمة، ويدل لذلك حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في بدء الوحي، إذ قالت رضي الله عنها: «**أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ بِاللَّيْلِ**». [البخاري في التفسير(٤٥٧٢)، وفي التعبير(٦٤٦٧)، ومسلم في الإيمان (٢٣١)].

فإيراد السؤال بالصورة التي أورده عليها الزرقاني ينافي أن الأمر من قبيل الوحي الذي لا تجري عليه مشاورة قط، ولا يدخله الاجتهاد؛ لأنه لا مشاورة في أمر نزل به الوحي، ولا اجتهاد مع النص؛ لأن الاجتهاد قد يدخله الخطأ فيصح العدول عنه إلى رأي آخر تظهر صوابيته، وهنا قد ثبت الوحي بالرؤيا الصادقة وتأويلها من رسول الله ﷺ، والوحي لا يصح العدول عنه إلا بوحي مثله أو أقوى طريقة من نوعه.

فلا وجه لهذا السؤال بالصورة التي أوردها الزرقاني، وإذًا لا محل لهذا الجواب الذي أجاب به عن السؤال، بل كان يجب أن يكون السؤال: لم عدل رسول الله ﷺ عن مقتضى رؤياه وهي وحي من الله تعالى إلى رأي هؤلاء الأحداث الذين استحوذت عليهم عواطف حب الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله وكلمة الحق والهدى والنور، مع أن النبي ﷺ أخبرهم برؤياه وسألوه عن تأويلها فأخبرهم بها وأولها به، وهم يعلمون أن رؤياه ﷺ ضرب من الوحي وطريق من طرائقه؟

وحينئذ يكون الجواب الملاقي لهذا السؤال ملاقاة متلائمة أن رسول الله ﷺ لم يعدل عما طلبه بمقتضى رؤياه وتأويلها ـ من المكث بالمدينة ومقاتلة أعدائه في طرقاتها ومن فوق بيوتها، وعدم الخروج عنها لملاقاة أعدائه خارجها كما هو رأي الشبان الأحداث الذين يريدون أن يعوضوا فضلًا فاتهم في بدر بالخروج في غزوة يكون لها فضلها ـ إلا بوحي ناسخ لوحي الرؤيا الصادقة التي رآها ليتم قضاء الله ويتحقق ما قدره في غيبه من ابتلاء المؤمنين؛ ليكون ذلك الابتلاء درسًا تربويًّا شديد الوقع، عميق الأثر في مستقبل المجتمع المسلم الذي لا ينبغي له أن يخضع للتأثر بالعواطف، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ينزل عليه الوحي، بل يجب أن يكون هوى كل مسلم تبعًا لما يبلِّغه رسول الله ﷺ من الوحي إليه بأية

طريقة من طرائقه، وليس بلازم أن يُخْبِر ﷺ بالنسخ؛ ولهذا لما رأى رجالٌ من أهل الرأي والسداد أن مخالفة رسول الله ﷺ وخيمة العاقبة ندموا، وَقَالُوا: **أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ نَمْكُثَ بِالمَدِينَةِ، فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْنَا الْعَدُوُّ قَاتَلْنَاهُمْ فِي الْأَزِقَّةِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالله وَبِمَا يُرِيدُ، وَيَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ أَشْخَصْنَاهُ،** فَقَالُوا: **يَا نَبِيَّ الله أَنَمْكُثُ كَمَا أَمَرْتَنَا؟** قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا أَخَذَ لَامَّةَ الحَرْبِ وَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالخُرُوجِ إِلَى الْعَدُوِّ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يُقَاتِلَ، وَقَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى هَذَا الحَدِيثِ، فَأَبَيْتُمْ إِلَّا الخُرُوجَ، فَعَلَيْكُمْ بِتَقْوَى الله، وَالصَّبْرِ إِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ، وَانْظُرُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ [مَاذَا أمركم الله بِهِ] فَافْعَلُوهُ**».

[السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٦٥، السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٥].

ففي هذا دليل على أنهم كانوا يعلمون أن رؤيا النبي ﷺ وحي من الله، وأنهم خالفوا رسول الله ﷺ وهو فيهم يأتيه الوحي، وأنه لا يتصرف إلا بأمر من الله وهو ﷺ أعلم بالله وما يريد، فمخالفته ومطاوعة العواطف مهما كان نبلها خروج عما يجب على المجتمع المسلم أفرادًا وجماعات من الطواعية له ﷺ لأنه أعلم بالله وما يريد ويأتيه الوحي من السماء، ونبل العاطفة قد يكون في مضها العذر للمخالفين لأنهم أرادوا الخير.

ولهذا لما ثابوا إلى طريق الاستقامة وعرفوا الحق طلبوا من رسول الله ﷺ أن ينفِّذ رؤياه على تأويله لها، ويمكث في المدينة لمقاتلة أعدائه في أزقتها وفجاجها وأسطح بيوتها، فأبى عليهم أشدَّ الإباء؛ لأن هذا الموقف منهم بعد موقفهم الأول يؤدي إلى التردُّد المفكك لوشائج العزائم الصافية، وهذا التردُّد يُطمع العدو فيهم ويجعله يظن بهم الظنون، والله تعالى يقول لرسوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٥٩] فالعزيمة بعد المشاورة لا تقبل التردد، والرجوع عن سمتها الذي اتجهت إليه ووضعت قدمها في أول خطوة من خطواتها في مسيرتها نحو هدفها». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٥٥٢-٥٥٤].

ويقول د/ الحميدي: «وقد يُقال: لماذا لم يعمل النبي ﷺ بالرؤيا التي رآها والتي مفادها الإقامة بالمدينة وعدم الخروج منها لقتال الأعداء مع أن رؤيا الأنبياء - عليهم السلام - حق ووحي؟ ولماذا فتح باب الشورى مع وضوح الأمر في هذه الرؤيا؟

ويمكن أن يقال: إن تلك الرؤيا تشتمل على الأمرين: البقاء في المدينة مع قتال الأعداء فيها والخروج لقتالهم، ويمثل الأمر الأول من الرؤيا قول رسول الله ﷺ: «**رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ**»، ويمثل الأمر الثاني قوله ﷺ: «**وَرَأَيْتُ كَأَنَّ سَيْفِي ذَا الفَقَارِ انْقَصَمَ مِنْ عِنْدِ ظُبَتِهِ، وَرَأَيْتُ بَقَرًا تُذْبَحُ**».

فكأن هذه الرؤيا تخيير للنبي ﷺ بين الأمرين، وكان النبي ﷺ رحيمًا بالمؤمنين، ولم يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا؛ فلذلك رأى البقاء في المدينة إشفاقًا على أصحابه، ثم استشار أصحابه

في أحد الأمرين، فلما رأى كثرة المشيرين بالخروج وشدة حماسهم وقوة اندفاعهم كره مخالفتهم ورغب في تلبية مطالبهم وتحقيق طموحاتهم، فعدل عن رأيه وأخذ برأيهم.

فالنبي ﷺ لم يخالف أمر الله تعالى في الرؤيا وإنما أخذ بأحد أمرين خُيِّرَ فيهما بعدما استشار أصحابه، فلا حاجة إلى القول بأن الرؤيا نسخت كما قال بعض العلماء؛ لأن ذلك لم يثبت، ولأن الرؤيا ليس فيها أمر صريح بأحد الأمرين. [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ٧٤-٧٥، مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٣٦-٣٧**].

٨ ـ الأخذ بالأسباب (١):

يقول د/ الزيد: «في استعداد الرسول ﷺ للحرب، نلحظ أنه ظاهَر بين دِرْعَيْن، أي لبس درعًا فوق درع، ومن هذا نأخذ مشروعية الجمع بين التوكل وفعل الأسباب، فلا يكفي التوكل دون فعل الأسباب، ولا يصح الاعتماد على فعل الأسباب فقط دون التوكل على الله». [**فقه السيرة للزيد ٤٤٧**].

٩ ـ لا علمانية في الإسلام:

يقول أ/ عبَّاد: «بعد انفضاض المجلس الاستشاري العسكري ذهب المسلمون لأداء صلاة الجمعة فصلى بهم النبي ﷺ، وهنا وقفة تأمل لدعاة فصل الدين عن الدولة (لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة) فها هو القائد الأول ﷺ ينغمس بكل كيانه وجوارحه في مجلسه الاستشاري العسكري (سياسة محضة)، ثم يصعد المنبر ليخطب ويصلي بالناس مباشرة (دين محض)، فهل كان ﷺ رجل سياسة أم رجل دين، رجل اقتصاد أم رجل اجتماع، أم... أم..؟

إن الرسول ﷺ هو المترجم للقرآن والمحدد أين يعمل الإسلام، فالإسلام الذي شرعه الله لم يدع جانبًا من الحياة دون آخر، فهو ـ بطبيعته ـ شامل لكل نواحي الحياة، فتكاليفه يتعبد بتنفيذها المؤمنون، ويتقربون بها إلى الله، فلا يتصور أن يقبل مسلم فريضة الصيام والصلاة، ويرفض فريضة القصاص أو الوصية أو القتال أو التحكيم إلى شرع الله، وقد دل على هذا الشمول القرآن والسنة، فقد قال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ ما ترك أمرًا يقربنا من الله إلا أمرنا به ولا ترك أمرًا يبعدنا عن الله إلا نهانا عنه، حتى تركنا على المحجة البيضاء «... **لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**» من حديث رواه ابن ماجه بإسناد حسن. [**ابن ماجه في المقدمة (٤٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح، وأحمد ٢٨/ ٣٦٧ رقم ١٧١٤٢ عن العرباض بن سارية ﷺ، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد حسن**].

---

(١) للتفصيل في هذا الدرس ينظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ـ د/ عبد الكريم زيدان ـ الفصل الأول ـ سُنَّة الله في الأسباب والمسببات [قانون السببية] . غريب.

فليعلم دعاة فصل الدين عن الدولة أن الإسلام نفسه يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه وأخذ بعضها دون بعض، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، وأن الله أنكر على بني إسرائيل تجزئة أحكام الدين بأنهم يؤمنون ببعض الكتاب (صلاة، زكاة، صيام)، ويكْفُرون ببعض (حُكم، شرائع، مُبشِّرات)، واعتبر هذا خزيًا في الدنيا وعذابًا في الآخرة فقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة]، فما بالنا بالإسلام وأهله؟ وما حُكم من جزَّأ دين الإسلام؟ وقد أشار في العصر الحديث الإمام حسن البنا في الأصل الأول من الأصول العشرين من رسالة التعاليم إلى عدة جوانب اعتبرها أساسية في الإسلام الشامل بقوله: «الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء».

[مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٤١-٤٣].

١٠ـ ظاهرة النفاق:

يقول د/ أبو فارس: «إن الدارس للسيرة النبوية في الطور المكي قبل الهجرة والطور المدني بعد الهجرة يجد أن ظاهرة النفاق قد نشأت في المجتمع المدني، ولم يكن لها أثر في المجتمع المكي.

وهذا عائد إلى أن الدعوة الإسلامية والجماعة الإسلامية كانت قليلة الأنصار ضعيفة الجانب، يتعرض أهلها إلى حملات التعذيب والتشريد والإبادة، لا تملك النفع المادي لأصحابها وأنصارها، ومن ثم فلا تملكه لغيرهم.

إن الذي يتعاطف مع هؤلاء المسلمين يُضطهد ويُؤذى ويُقاطع وتتعرض مصالحه للخطر، ومركزه الاجتماعي إلى الانحطاط.

إن المسلمين في مكة ليس عندهم من المال الوفير الذي يُرضون به الناس ويكسبونهم، وليسوا أصحاب سلطان يقربون للناس، ويحققون رغباتهم وطموحاتهم، وليسوا أصحاب جاه من خلالهم يحقق الانتهازيون مصالحهم، ويصل الوصوليون إلى مآربهم.

إنه لا منفعة مادية تُرجى منهم عاجلًا أو آجلًا، إن الذي ينضم إليهم يأخذون منه كل شيء ولا يعطونه شيئًا، إن عليه أن يبذل ماله ودمه وكل ما يملك في سبيل دعوة الله، وأجره على الله فاطر السموات والأرض.

وبعبارة موجزة إن النفاق والمنافقين لم يظهروا في الطور المكي لعدم توافر مبررات وجود النفاق والمنافقين.

أما في المجتمع المدني بعد الهجرة النبوية، فقد أقام المسلمون كيانًا سياسيًّا لهم، وأصبح لهم دولة وصولة وجولة، وكثرت الأموال، وعظم السلطان، وسيطروا في المجتمع المدني سيطرة تامة، وكان بعض أهل يثرب وفي مقدمتهم عبد الله بن أبي بن سلول أصحاب أطماع سياسة، وتشوُّف للزعامة، فقد كان قبل الإسلام يَنظم له قومُه الخرز حتى يتوجوه ملِكًا، وجاء الإسلام فحال بينه وبين ما يطلب، وليس له القدرة على مجابهة المسلمين بالقوة، فأظهر الإسلام حتى يحقق بزعمه ما يطمح إليه، وما يتطلع إليه من تطلعات، وأبطن الكفر في قلبه، فهو قد آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه.

ولما أيقنوا أن الإسلام لا يحقق ما في نفوسهم الخبيثة من مآرب سيئة، أخذوا ينتهزون كل فرصة سانحة للإساءة إلى الإسلام وأهله، فشمتوا بالمسلمين كلما ألم بهم مصيبة، أو حدث لهم حادث سوء، وحزنوا حزنًا شديدًا إذا أدرك المسلمون خيرًا في حياتهم.

فقد وصفهم الله تعالى لنبيه محمد ﷺ وللمسلمين فقال ﷻ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران].

ولقد أكثر القرآن الكريم من الحديث عن المنافقين فسُميت سورة من سور القرآن باسم (المنافقون)، وتحدثت سورة براءة عنهم فهتكت أستارهم وكشفت أسْرارهم، وفضحت أساليبهم الملتوية، فسُميت بالفاضحة والكاشفة.

هذا وقد تحدث القرآن عن المنافقين في عشر سور من سوره.

والذي يستعرض الآيات التي تحدثت عن المنافقين، وسورها، يجد أن جميعها وردت في السور المدينة؛ لهذا يحدثنا العلماء بأن من ميزات القرآن المدني حديثه عن المنافقين، فكل آية تحدثت عن المنافقين فهي مدنية.

أساليب المنافقين في الكيد للإسلام وأهله: وكانت للمنافقين الحاقدين على الإسلام وأهله أساليب خبيثة في حرب المسلمين، ولقد حدثنا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة عن هذه الأساليب الشريرة لنحذرها ونحذر أهلها، ولا نطمئن إليهم وإن أظهروا الإسلام على اللسان، فالكفر يتغلغل في الجنان.

فمن الأساليب التي أخبرنا القرآن عنها أسلوب السخرية والاستهزاء بالمؤمنين لينالوا منهم، ويهوِّنوا من شأنهم، وليذهبوا بعض غيظ قلوبهم، قال ﷻ يحدثنا عن هذا الأسلوب: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾[التوبة].

وتارة يستخدمون أسلوب التشكيك وإثارة الفتنة، قال سبحانه: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وتارة يتعاونون مع غير المسلمين من يهود وكافرين ضد المسلمين، ويحرِّضونهم على قتال المسلمين، فقد قام المنافقون بقيادة عبد الله بن أبي بن سلول يحرِّضون بني النضير على البقاء في المدينة، وعدم الاستسلام لأمر النبي ﷺ القاضي بخروجهم منها.

قال ﷻ يحدثنا عن هذا الأسلوب: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر].

وتارة يحاولون بذر بذور الفتنة بين المسلمين، لإيجاد شرخ في وحدتهم وتماسكهم، ومن ثم إضعافهم حتى يحصل لهم ما يرجون، ففي غزوة بني المصطلق استغل عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين تخاصم رجل من الأنصار مع أجير لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال مثيرًا الفتنة: (**أَوَقَدْ فَعَلُوهَا، قَدْ نَافَرُونَا وَكَاثَرُونَا فِي بِلادِنَا، وَاللهِ مَا أَعُدُّنَا وَجَلابِيبِ قُرَيْشٍ إِلَّا كَمَا قَالَ الأَوَّلُ: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، أَمَا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَ لَهُمْ: هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ، وَقَاسَمْتُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ، أَمَا وَاللهِ لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ لَتَحَوَّلُوا إِلَى غَيْرِ دَارِكُمْ**). [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩١].

وتارة يسلكون أسلوب التثبيط عن الجهاد بعد أن يخذلوا المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

وتارة يَلِغون في أعراض المسلمين ويرمونهم بالفاحشة، هذا وتوجهت سهامهم إلى رسول الله ﷺ، فقد قاد حملة الإفك عبد الله بن أبي بن سلول، واتهم زوج النبي ﷺ بالفاحشة، وأشاع هذا للإساءة إلى النبي ﷺ، فبرأها الله ولعنه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور].

وتارة بتشجيع الفساد والانحلال الخلقي، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف قال سبحانه: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة].

وتارة يسلكون أسلوب الخداع والكذب على المسلمين، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [البقرة].

وتارة بلمز النبي ﷺ والطعن في عدالته في توزيع الزكاة وقسمة الغنائم، قال ﷻ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [التوبة].

ولقد وقف الجد بن قيس يعترض على قسمة النبي ﷺ في غنائم حنين فقال: اعدل، فقال الرسول ﷺ: «**وَيْحَكَ مَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ**»(١).

وتارة يطعنون بالرسول ﷺ وأنه سمّاع لكل ما يُقال، دون أن يميز الغث من السمين والنافع من غيره، قال تعالى يذكر هذا الأسلوب الخبيث عندهم: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة].

وتارة يوالون الكافرين من دون المؤمنين، بل وينصرونهم على المؤمنين ويتمنون الهزائم لهم، قال سبحانه: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء].

---

(١) جاء في نيل الأوطار ٨/ ٢٩٧: (عن جابر ﵁ قال: أتى رجل بالجعرانة منصرفه (منصرف النبي ﷺ) من حنين وفي ثوب بلال فضة، والنبي ﷺ يقبض منه يعطي الناس فقال: يا محمد، اعدل.

فقال الرسول ﷺ: **ويلك من يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل**.

فقال عمر ﵁: دعني يا رسول الله أقتل هذا المنافق.

فقال: **معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية**». رواه أحمد ومسلم).

فئات المنافقين: ومن الجدير بالذكر هنا أن المنافقين لم يكونوا من أهل المدينة فحسب، بل كان منهم من أهل المدينة من المشركين، ومن أهل المدينة من اليهود، ومن الأعراب حول المدينة.

أما أهل المدينة من العرب المنافقين فقد دفعهم حب الزعامة والرياسة والجاه إلى عدم الإيمان والنفاق أملًا منهم في الوصول إلى أهدافهم وتحقيق مآربهم، فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر.

وأما المنافقون من اليهود فقد حسدوا رسول الله ﷺ أن ينزل عليه سبحانه الرسالة، فلم يؤمنوا به حق الإيمان، و في نفس الوقت لم يقدروا أن يقاوموه ويستخدموا القوة في حربه، فاختار بعضهم هذا الأسلوب في المحاربة فأظهر الإسلام وأبطن الكفر.

والفئة الثالثة: المنافقون من الأعراب، وهؤلاء أصبحوا منافقين لجفاء طبعهم، وقساوة قلوبهم، وغلظ أكبادهم، ولغلبة التوحش عليهم، وشيوع النهب والسلب، وعدم انسجامهم مع قانون أو نظام، وألفتهم لحياة الفوضى والاضطراب، فقد كرهوا أن يضيق عليهم بقانون أو نظام، فقَبِل بعضهم ذلك على مضض فانصاع في الظاهر، وبقي عدوًّا في الداخل كلما سنحت لهم فرصة عبَّروا عن حقيقة ما في أنفسهم فنهبوا وسلبوا وقطعوا.

ولقد وضع الإسلام علاجًا لهؤلاء المنافقين، يختلف اختلافًا بينًا عن علاج الكافرين، فعالج الكافرين إنْ أصروا على موقفهم بالقتال، وعالج المنافقين بالقول البليغ المؤثر في النفس، وهذا هو جهاد المنافقين، أما جهاد الكافرين فبالقتال، قال تعالى مبينًا صورة جهاد المنافقين: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء].

ولم يستخدم النبي ﷺ مع المنافقين أسلوب العنف والقتال، إنما استخدم معهم أسلوب الملاينة والملاطفة وتحمَّل رئيسهم عبد الله بن أبي بن سلول حتى مات، وصبر على أذاه.

وهذا الأسلوب منه ﷺ بتوجيه من ربه ﷻ يؤخذ منه ما يلي:

(١) وحدة الطريقة في علاج المعضلات وسيلة من شأنها أن تحافظ على وحدة المسلمين.

(٢) قطعت ألسنة أعدائه أن يصفوه بالسفَّاح.

(٣) تقليل أنصارهم بالصبر عليهم وكشف حقيقتهم للناس خلال التعامل معهم».

[غزوة أُحد لأبي فارس ٤٨-٥٦، وينظر للتفصيل عن «النفاق وقادته»: التربية القيادية للغضبان ٣/ ١٦٥-١٧٨].

١١ ـ خطورة النفاق على الصف المسلم:

يقول د/ فيض الله: «النفاق ضعف وتلبسة، ولا يكشف الضعف إلا القوة، ولا يجلي التلبسة إلا الوضوح، فابن أُبي بن سلول ينخذل في الطريق إلى أُحد، بثلاثمائة من أتباعه، كانوا يمثلون ثلث الجيش، وليس هذا العدد بقليل؛ وانفصاله عن المسلمين في الوقت الحاسم؛ مما يثبط الهمم، ويكسر النفوس الضعيفة، ويثير فيها بواعث القلق والخوف والاضطراب، وهي مقدمات الهزيمة.

ولعله ما كان يقصد إلا هذا، أن يفتَّ في عضد المسلمين، ويثبِّطهم عن لقاء إخوانه المشركين؛ إذ قد كان يمكنه أن يقعد ولا يخرج مع مَنْ خرج، لكن هذا لن يُحدث التفكك المطلوب، والتمزيق المنشود؛ لهذا انحسر مع شِرْذِمَتِه المنافقة في الوقت المناسب.

ولقد تذرَّع بأنه تأثر من رفض النبي ﷺ رأيه، وهو الشيخ المحنَّك، وأخذ برأي الشباب السُذَّج؛ ورأيهم فطير (رَأْي فطير: خطر بالبال وَأُبْدي بِلَا تثبت).

وليس هذا إلا تَعِلَّة الانفصال، وإنما العلة أنه لا يتصور أن يقاتل مع المسلمين، أعوانَه وأنداده من أهل الشرك، فكان من فوائد هذه الغزوة أنها كشفت هؤلاء المنافقين، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ١٦٧﴾[آل عمران].

ولا شك أن انسحاب المنافقين قاطع بأن المحاربين مؤمنون، وأن الغزوة محَّصت المؤمنين من غيرهم، ولا شيء مثل الغزو والحرب والقتال والمحن، يكشف الزيف، ويطهر القلوب، ويبرز الزغل والزيف، ويفصل بين الإيمان الواضح الصريح، والكفر المُبطَّن المطلي.

وقد جاء في الآيات القرآنية التي عقَّبت على هذه الغزوة العجيبة، قوله تعالى في هذا الذي نحن في مواجهته: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤١﴾[آل عمران]». [صور وعبر لفيض الله ١١٣-١١٤].

ويقول د/ أبو خليل: «لقد أساء المنافقون قبل أُحُد وبعدها، أساؤوا بعدها بدَعاواتهم المضلِّلة، وأساؤوا قبلها عند انسحابهم، فشقُّوا بذلك الصفوف، وأضعفوا القوى، ومع ذلك ما ظهر من رسول الله ﷺ إلا كل صبر وحلم وأناة على الرغم من نفاقهم ودعاواتهم.

ولكنه ﷺ قال عند انسحابهم: «**إِنَّهَا طَيْبَةُ تَنْفِي الذُّنُوبَ [الخَبَثَ] كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الفِضَّةِ [الحَدِيدِ]**»، فمثل أحداث أُحُد، عملية فرز تطهِّر المجتمع؛ ليبقى صافيًا نقيًّا نظيفًا».

[غزوة أحد لأبي خليل ١٢٨].

١٢ ـ أن يتميَّزَ المؤمنُ الصَّادِقُ مِن المنافقِ الكاذبِ:

يقول د/ الزيد: «في انخزال عبد الله بن أُبي ومَنْ معه وامتناعهم عن استمرار المسير لملاقاة المشركين خارج المدينة، ثم ما حصل من السرور بعد ذلك للمنافقين من نتائج المعركة نأخذ منها أن حكمة الله سبحانه اقتضت «أن يتميَّز المؤمنُ الصَّادِقُ مِن المنافقِ الكاذبِ، فإنَّ المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يومَ بدر، وطار لهم الصِّيتُ، دخل معهم في الإسلام ظاهرًا مَنْ ليس معهم فيه باطنًا، فاقتضت

حِكمةُ الله ﷻ أن سَبَّبَ لعباده محِنَةً ميَّزت بين المؤمن والمنافق، فأَطْلَعَ المنافقون رُؤوسَهم في هذه الغزوة، وتكلَّموا بما كانوا يكتُمونه، وظهرت مُخبَّآتُهم، وعاد تلويحُهم تصريحًا، وانقسم الناسُ إلى كافر، ومؤمن، ومنافق، انقسامًا ظاهرًا، وعرَفَ المؤمنون أن لهم عدوًّا في نفس دُورهم، وهم معهم لا يُفارقونهم، فاستعدُّوا لهم، وتحرَّزوا منهم، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] أي: ما كان اللهُ ليذركم على ما أنتم عليه من التباسِ المؤمنين بالمنافقين، حتى يميزَ أهلَ الإيمانِ مِن أهل النفاق، كما ميَّزهم بالمحنة يومَ أُحُد، وما كان الله لِيُطلعكم على الغيب الذي يَمِيزُ به بينَ هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميِّزون في غيبه وعلمه، وهو سبحانه يُريد أن يميزهم تمييزًا مشهودًا، فيقع معلومهُ الذي هو غيبٌ شهادةً، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب، سوى الرسلِ، فإنه يُطلعهم على ما يشاء مِن غيبه، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيبِ الذي يُطْلِعُ عليه رسله، فإن آمنتم به وأيقنتم، فلكم أعظمُ الأجر والكرامة». [زاد المعاد ٣/ ١٩٩].

فالشدائد تكشف الصديق من العدو وتميِّز بينهما تمييزًا واضحًا وقد قال الشاعر:

جَزَى اللهُ الشَّدَائَدَ كُلَّ خَيْرٍ ... عَرَفْتُ بِهَا صَدِيقِي مِنْ عَدُوِّي

ومن أعظم النعم معرفة العدو وكشفه للحذر منه ومن كيده ودسائسه».

[فقه السيرة للزيد ٤٤٧-٤٤٨].

ويقول د/ البوطي: «للمنافقين في هذه الغزوة مشهد بارز... ولم لا يكون مشهدهم بارزًا فيها، وهي إنما انطوت على حِكَم ومقاصد، من أهمها تمحيص المؤمنين عن أخلاطهم من المنافقين؟ وإن من وراء ذلك لفوائد كبيرة للمسلمين كانت ذخرًا لهم فيما بعد.

لقد رأينا كيف انخذل عبد الله بن أبي بن سلول بثلاثمائة من أتباعه عن رسول الله ﷺ وأصحابه، بعد خروجهم من المدينة، وسبب ذلك في ظاهر ما تذرع به: أن النبي ﷺ إنما أخذ برأي الشباب الأغرار، ولم يأخذ برأي أمثاله من الشيوخ أرباب الحِجى والأحلام، غير أن سبب ذلك في الحقيقة وواقع الأمر، هو أنه لا يريد قتالًا؛ لأنه لا يريد أن يعرض نفسه لمخاوفه ومغباته، وتلك هي أبرز سمات المنافقين: **يريدون أن يأخذوا ما في الإسلام من مغانم، ويبتعدوا عما فيه من مغارم وأتعاب! وإنما الذي يمسكهم على الإسلام أحد شيئين: غنيمة يتوقعونها، أو مصائب ومحن يتوقونها**». [فقه السيرة للبوطي ١٨٩].

ويقول د/ الدقس: «شاء الله تعالى أن يلقن المسلمين درسًا قاسيًا بعد كل هذه الانتصارات، وذلك في النكسة التي لحقت بهم في أُحد، بسبب مخالفة أمر الرسول القائد ﷺ، وكانت تلك النكسة خيرًا كلها، إذ أفادت المسلمين فوائد جمة لا تقل عن انتصار بدر ـ على رغم الخسارة الفادحة التي حلَّت بهم.

فإذا كانت بدر فرقانًا بين الحق والباطل: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، فقد كانت غزوة أُحد فرقانًا ميَّز الله به الطيب من الخبيث، والمؤمن من المنافق: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران].

فقد كشفت تلك النكسة حقيقة الصف المسلم، وتميز المؤمن القوي من المؤمن الضعيف من المنافق، ومن وجهة النظر السياسية كان من الخير أن يخسر المسلمون معركة ما، والدولة الإسلامية في مرحلة التكوين والنشوء؛ ليتميز الخبيث من الطيب، فاستبعد الخبثاء وضعفاء النفوس عن العمل السياسي، وبقي الأطهار الأبرار الأخيار يشدون أزر رسولهم ودولتهم.

قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران].

وقال الله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال].

لقد كانت هزيمة أُحد تمحيصًا للصف وتمييزًا للمؤمنين من المنافقين، حتى يذهب الزبد جفاء ويمكث ما ينفع الدعوة والدولة». [**دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين للدقس ص ٥٤٠**].

«لقد كان من أهم الدروس التي نجمت عنها غزوة أُحد، هي تمحيص المؤمنين عن أخلاطهم من المنافقين». [**فقه الغزوات للعيساوي ٢٧٢**]. [**وينظر للتفصيل عن المنافقين وبيان أوصافهم في غزوة أُحُد: التربية بالأحداث والوقائع في القرآن الكريم من خلال غزوة أحد في سورة آل عمران لمفتاح ص ٤٧٦-٥٢٤**].

ويقول أ/ خلف الله: «يمتاز المنافق بضعف الإرادة والعجز والحقد، فلو كان قوي الإرادة لما بدا لصاحبه بوجهين، بل لصارحه برأيه بكل شجاعة، والعجز يجبر المنافق على إخفاء مشاعره وكتمانها مما يزيد من وقدة النفاق وشدته، ويتولد الحقد من اعتقاد المنافق أن صاحبه هو الذي يحول بينه وبين بلوغ أهدافه وأمانيه، ونظرًا لضعفه وعجزه فإنه يتمنى كل سوء في سريرته لصاحبه ويجتهد في إخفاء ذلك عنه.

ولا أضر على الجماعة البشرية من المنافقين فيها، وأعلى هؤلاء المنافقين ضررًا الفريق الذي يناوئ نظام الجماعة نفسه: ذلك أنهم يتمنون زواله في كل وقت، وفي هذا ما فيه من ضرر بالغ يلحق الجماعة كلها.

والمنافق يمتاز بكل خصلة تفسد الجماعة: فهو يمتاز بالدس والإغراء والخيانة، ويمتاز بحبه للعدو لاتحاده معه في الهدف، ويمتاز بالكذب في جميع أموره فهو يحلف إنه من أشد المخلصين المتحمسين للصالح العام وفي نفس الوقت يسعى لهدم كل ما ينفع الصالح العام، وهو يعد بأنه سيفعل ويفعل خدمة للجماعة، ولكنه إذا جد الجد أخلف وعده وتعلل بالعلل، وإذا ائتمنته الجماعة على أمر من أمورها المالية أو السياسية أو العسكرية خانها وأضر بها.

قال أعلم العلماء بالنفوس وطبائعها رسول الله ﷺ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**». [البخاري في الإيمان (٣٣)، وفي الشهادات (٢٦٨٢)، وفي الوصايا (٢٧٤٩)، وفي الأدب (٦٠٩٥)، ومسلم في الإيمان (٥٩)، والترمذي في الإيمان (٢٦٣١)، وأحمد عن أبي هريرة ﷺ (٨٤٧٠)].

وما كان الله ليذر الأمر ملتبسًا مختلطًا بل قضت حكمته أن يميز الخبيث من الطيب: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[آل عمران: ١٧٩].

ولا يتميز هذا من ذاك إلا بامتحان من نوع خاص له مقاييس خاصة، ولما كانت أبرز خصائص المنافقين قلة صبرهم عند الشدائد كانت البلايا والمحن التي تمر بها الجماعة هي المحك الذي يُظهر نفاق هؤلاء واضحًا للملأ.

ولم يستطع المنافقون أن يجوزوا امتحان غزوة أحد فأطلوا برؤوسهم كالثعابين وأظهروا ما تخفيه بواطنهم وتحدثوا بمخبآتهم، فرجع عبد الله بن أُبيٍّ وفئته قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾[آل عمران: ١٦٧] ولما نال المؤمنين ما نالهم قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾[آل عمران: ١٦٨]، وهنا امتاز الناس وعرف المؤمنون أن لهم عدوًّا يساكنهم في مدينتهم ويشاركهم في مجالسهم ولا يفارقهم، فتحرزوا منه ومن كيده.

إن معرفة المنافقين ليس بالأمر الهين السهل، وما كل امتحان يُظْهِر المنافق، بل لا بد لهذا الامتحان من قواعد وشروط يجب مراعاتها ليأتي بالنتيجة المطلوبة، وإن قواعد الامتحان التي وضعها الإسلام لمعرفة هؤلاء قد بُنيت على أدق الاختبارات النفسية.

لقد توصل العلماء الآن إلى وضع اختبارات لمقياس الذكاء أو معرفة القدرات الفردية، ولكنهم حتى الآن لم يتوصلوا إلى تنظيم قواعد ثابتة لمعرفة هذا الطابور الخامس.

وهذه الامتحانات كما تُظهر المنافق وتضع النقط فوق الحروف ليعلم الناس حقائق هؤلاء، تؤدي في نفس الوقت خدمة أخرى للجماعة: فهي تميز المؤمن الصادق وتقسم المؤمنين إلى درجات متفاوتة في إيمانهم وصدقهم.

ولها فائدة أخرى أيضًا: ذلك أنها تنقي المؤمنين من آفات النفوس وأمراضها وتصقلهم، فلو تُركت النفوس في عافية مستمرة لما تهذبت ولما صلحت ولا يمحصها غير التجارب والامتحانات والاختبارات: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾[آل عمران]».

[غزوة أُحد لخلف الله ١٧٩-١٨١].

ويقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر مواقف وعبر، فمنها:

أولًا: أن فيه درسًا بليغًا للمسلمين ليأخذوا العبرة مما جرى من أولئك المنافقين الذين خذلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين وهم في أحرج المواقف.

وأمام هذا الحادث المهم تَرِد بعض التساؤلات حول تصرفات المنافقين الغريبة في هذه المعركة، فقد خرجوا مع المؤمنين أوَّلًا، ثم لما كانوا في أثناء الطريق رجعوا إلى المدينة بصورة تثير الشبهة عليهم وتبعث على الشك فيهم، فلماذا خرجوا مع المؤمنين ما داموا لا يريدون نُصرة الإسلام والمسلمين؟ ولماذا رجعوا من أثناء الطريق؟

والجواب أن يُقال: يحتمل أنهم خرجوا من أجل الغنائم فيما إذا كان النصر للمسلمين، فلما رأوا ضخامة جيش الكفار أُصيبوا بالرعب وامتلأت قلوبهم ذعرًا فرجعوا ولم يدخلوا المعركة.

ويحتمل أنهم خرجوا مبالغة منهم في ستر نفاقهم، ثم أصيبوا بالرعب فلم يستطيعوا الاستمرار في تمثيل هذا النفاق الذي سيكلفهم تضحيات كبيرة، فرجعوا إلى المدينة مفضلين مواجهة نقمة المؤمنين المحتملة فيما إذا بقي لهم كيان بعد المعركة على مواجهة الموت المحقق في نظرهم على يد الكفار.

ويحتمل أنهم كانوا يسيرون على خطة مرسومة، وذلك في أن يخرجوا مع المؤمنين فإذا ما شارفوا على الوصول إلى الأعداء رجعوا محاولين بذلك التخذيل عن النبي ﷺ بإثارة الفزع والخوف بين المؤمنين.

كل ذلك محتمل، ولكن الذي يظهر أنهم لم يتفقوا على خطة مرسومة وهم في المدينة؛ لأن النبي ﷺ حينما استشار الناس في الخروج أو البقاء وسمع رأي الفريقين دخل بيته ولبس لأمته وأمر الناس بالخروج، فليس هناك وقت كاف لاجتماع المنافقين واتفاقهم على مثل هذه الخطة، فالظاهر أنهم خرجوا نفاقًا، وربما كان لهم أو لبعضهم هدف في الغنيمة، فلما رأوا جيش الكفار أُصيبوا بالرعب فانسحب زعماؤهم وتبعهم مَنْ هو على شاكلتهم في النفاق، ومَنْ لم يتمكن الإسلام من قلبه فافتتن في ذلك اليوم ونافق، وربما كانوا يدبرون خطة الانسحاب في تلك الليلة التي بات فيها جيش المؤمنين قريبًا من جيش الكفار على نحو يثير الفزع والاضطراب في جيش المؤمنين حتى يرجع معهم أكبر قدر ممكن منهم؛ ليحصل الفشل في المسلمين فينهزموا أمام أعدائهم؛ وليتفادوا نقمة المؤمنين بهم فيما إذا انتصروا إذا كان عددهم كبيرًا.

ولقد حصل لهم بعض ما أرادوا حيث رجع ثلث الجيش الإسلامي في ذلك اليوم، وليس من المقطوع به أن جميع أولئك الذين رجعوا كانوا منافقين قبل ذلك، بل يحتمل أن بعضهم كفروا في ذلك اليوم ثم أخفوا كفرهم عن المؤمنين.

وعلى أي حال فرجوع عبد الله بن أُبي ومَنْ معه من المنافقين في ذلك اليوم يُعتبر خيانة مكشوفة، ودليلًا واضحًا على نفاقهم، وهذا من أوضح الأدلة على ما بيته المنافقون للمؤمنين من الشر والنوايا السيئة. [من كتاب «المنافقون في القرآن الكريم» للمؤلف [د/ الحميدي] ص١٢٤].

ولقد تبين من الحوار الذي جرى بين عبد الله بن عمرو بن حرام ﷺ والمنافقين أن هؤلاء المنافقين متناقضون، فبينما يقول عبد الله بن أُبي لحزبه من أهل النفاق في بيان سبب انسحابه: «**أطاعهم وعصاني، وما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس**»، نراه يقول هو وجماعته لعبد الله بن عمرو بن حرام ﷺ: «**لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال**»، وهذا كلام لا يقوله عاقل يزن كلامه؛ لأن أي عاقل يدرك أن قريشًا لم يخرجوا إلا لقتال، ثم إنه إذا كان يغلب على ظن هؤلاء المنافقين أنه لن يكون قتال فلماذا رجعوا وقال بعضهم لبعض: **علام نقتل أنفسنا؟** وما أجابوا به عبد الله بن عمرو بن حرام ﷺ قد أثبته الله سبحانه على سبيل التوبيخ لهم بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران].

ثانيًا: موقف جليل لعبد الله بن حرام ﷺ حيث سار خلف عبد الله بن أبي بن سلول ومَنْ تبعه من المنافقين يُرغِّبهم في الجهاد في سبيل الله تعالى، ويبعث فيهم النخوة والشهامة للدفاع عن بلدهم وأعراضهم وأموالهم إن لم يكن بهم رغبة في الجهاد في سبيل الله تعالى، وما زال يلح عليهم بالرجوع حتى وصلوا إلى المدينة فدعا عليهم دعاء المعتز بدينه الواثق بنصر الله تعالى لأوليائه مُظهرًا لهم حقارة أمرهم وعدم احتياج المسلمين لنصرتهم.

وهكذا كان عبد الله بن عمرو بن حرام ﷺ حكيمًا عظيم التقدير للأمور، فحينما دعاهم إلى الرجوع ذكَّرهم بوجوب النصرة وفظاعة الخذلان، فلما أن أصروا على الانسحاب بيَّن لهم استغناء المؤمنين عنهم وأشعرهم بهوان أمرهم حتى لا يحملهم الغرور على تحقير المؤمنين وإثارة القلق والرعب في الذراري والنساء وأهل الأعذار». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ٨١-٨٤**].

١٣ـ النفاق وأثره في الدعوة الإسلامية:

يقول د/ العيساوي: «لقد كان للنفاق أثر كبير في مسيرة الدعوة الإسلامية، حدث ذلك في البلبلة والاضطراب الذي أثاره عبد الله بن أُبي بن سلول في جيش المسلمين، حينما انعزل بالمنافقين من أتباعه والمسلمون على مرأى ومسمع من عدوهم.

لقد كانوا يسعون جاهدين لتفتيت الصف المسلم، ولقد مر علينا دورهم الخياني في غزوة بني قينقاع، وفي غزوة بني النضير، وكذلك ما فعلوه في غزوة الأحزاب من إثارة القلق والاضطراب وإلقاء الرعب والدهشة في قلوب المؤمنين ما قد قص الله تعالى ذلك في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب].

لقد عرف المنافقون أن القضاء على هذا الدين وأهله لا يمكن بطريق استخدام السلاح، فقرروا أن يشنوا حربًا دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد، وأن يجعلوا شخصية الرسول ﷺ أول هدف لهذه الدعاية، وقد ظهرت خطتهم هذه جلية واضحة بعد غزوة الأحزاب، حينما تزوج الرسول ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، بعد أن طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه، وأكثروا من الدعاية في هذا السبيل، واختلقوا قصصًا وأساطير، وقد نشروا هذه الدعاية المختلفة نشرًا بقيت آثاره في كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان، وقد أَثَّرت تلك الدعاية أثرًا في صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالآيات البينات فيها شفاء لما في الصدور، وينبئ عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب]. [**الرحيق المختوم للمباركفوري ص٣١٦**].

هذه إشارة عابرة، وصورة مُصَغَّرة مما اقترفه المنافقون قبل غزوة بني المصطلق، وكان النبي ﷺ يكابد كل ذلك بالصبر واللين والتلطف، وكان عامة المسلمين يحترزون عن شرهم أو يتحملونه بالصبر إذ كانوا قد عرفوهم بافتضاحهم مرة بعد أخرى حسب قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة].

ولما كانت غزوة بني المصطلق وخرج فيها المنافقون، مثلوا قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾[التوبة].

فقد وجدوا متنفسين للتنفيس بالشر فأثاروا الارتباك الشديد في صفوف المسلمين، والدعاية الشنيعة ضد النبي ﷺ، وهذا ما سنتعرض له في دور المنافقين في غزوة بني المصطلق من خلال قولهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون]، من خلال ترويجهم لحادث الإفك.

إن دور المنافقين في تثبيط الهمم وإضعاف شوكة المسلمين ليس بالقليل، ولكن الرسول ﷺ بحكمته وبراعة سياسته للأمور استطاع أن يُحجِّم النفاق وأن يقضي على معسكره في المدينة، إن ظاهرة النفاق ابتدأت قبيل أُحد، وبلغت ذروتها في أُحد، وظهر عظم خطرها على الصف الإسلامي، وانتهت فردًا أو أفرادًا يعدون على الأصابع، وأصبح الصف الإسلامي نقيًّا خالصًا وذلك بعظمة تربية النبي ﷺ التي دفعت الكثير منهم إلى أن يسلم ويحسن إسلامه، غير أن هذه الظاهرة عادت للظهور مرة ثانية بعد فتح مكة وانتشار الإسلام في الأرض العربية، وبدت أوضح ما يكون في غزوة تبوك حيث تناولت سورة براءة فضح كل أساليبهم ومخططاتهم، وسبب عودة ظاهرة النفاق هو أن فتح مكة جعل الكثيرين يدخلون خوفًا في الإسلام، فيظهرونه ويبطنون الكفر[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ١/ ٢٨١]».

[فقه الغزوات للعيساوي ٢٧٣-٢٧٤].

١٤ ـ الباعث الحقيقي لانفصال المنافقين في غزوة أُحد:

يقول ف. ر/ سالم العلي: «في الحقيقة لم يكن ما ادعاه المنافقون هو الباعث الحقيقي لانفصال عبد الله بن أُبي عن جيش المسلمين، بل كان الباعث الحقيقي لهذا التمرد في مثل هذا الظرف الدقيق هو إحداث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم؛ ليكون ذلك أسرع في القضاء عليهم، وفعلًا هَمَّ بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج بالانسحاب من الجيش والعودة إلى المدينة متأثرين بوساوس ذلك المنافق الكبير، وكادت أن تحدث الكارثة لولا لطف الله ﷻ، فعدلتا عن الانسحاب، وقد أنزل الله تعالى فيهما الآيتين الكريمتين: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران]، وقد قاتلت هاتان الطائفتان قتال الأبطال في غزوة أُحد، وسقط منهما العديد من الشهداء والجرحى». [معركة أُحد للعلي ٢٥، غزوة أُحد لباشميل ٧٤-٧٥].

ويقول د/ زين السيد: «كان ابن أُبي يرجو من وراء تصرفه هذا الذي أشرت إليه أن يُضعف قوة المسلمين ويوهن من عزائمهم، ولكن رسول الله ﷺ رأى أن رجوع ابن أُبي ومن معه فيه راحة المسلمين، إذ كفوا شرهم وأُبعدوا حتى لا يحدثوا في الجيش ما يؤثر فيه؛ لذا سار المسلمون في وجهتهم غير مكترثين بتصرف ابن أُبي، فسارع رسول الله ﷺ بإعداد الجيش للمعركة». [دور الحرب النفسية للسيد ٦٥].

١٥ ـ ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟!:

يقول د/ الحميدي: «وهذا الموقف الحذِر من رسول الله ﷺ من اليهود يدلنا على بُعد نظره، فهو يعلم من عداوة اليهود للمسلمين ما لا يعلمه الأنصار الذين يظنون أن حلف اليهود لهم وهم في جاهليتهم قد بقي على ما هو عليه بعد إسلامهم، والحال أن اليهود أشد عداوة لهم من المشركين، ولكنهم يُبطنون العداوة ويتربصون بالمؤمنين الفرص المناسبة ليفتكوا بهم، وقد أبانت الأيام بعد ذلك بُعْد نظر النبي ﷺ وصدق تقديره للأمور، كما سيأتي بيان صور من غدر اليهود». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ٨٥**].

ويقول د/ زين السيد: «ومن العجب العجاب أن اليهود الذين لم يحاربوا الرسول ﷺ إلا في الحصون يتطوعون للحرب مع الرسول ﷺ، وليس هذا بالأمر الذي يخفى على الرسول ﷺ، فلابد أنهم كانوا يدبرون أمرًا يغيرون به نظام المعركة باتفاق مع حليفهم المنافق عبد الله بن أُبي بن سلول».
[**دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ٦١**].

١٦ ـ النهي عن التطير والتشاؤم [(١)]:

يقول أ/ عبَّاد: «مضى الجيش الإسلامي في سكون، فذب فرس أبي بردة بن نيار ﷺ بذنبه، فأصاب حلقة سيف النبي ﷺ فاستله، فقال النبي ﷺ ـ وكان يحب الفأل الحسن ولا يتطير ـ: «**يَا صَاحِبَ السَّيْفِ، شِمْ سَيْفَكَ ـ أي: اغمده ـ فَإِنِّي إِخَالُ السُّيُوفَ سَتُسَلَّ فَيَكْثُرُ سَلُّهَا**».

وكانت العرب تتشاءم من مثل هذا الحدث، وتعتبره من الفأل السيء؛ لذلك حينما علم أبو جهل ـ في غزوة بدر ـ برغبة عتبة بن ربيعة بالرجوع إلى مكة دون محاربة المسلمين وإعلانه لتلك الرغبة، استل سيفه وضرب به فرسه، فقال حكيم بن حزام: بئس الفأل هذا، وتشاءمت قريش من هذا.

لقد حارب الإسلام تلك العادة الجاهلية التي كانت لدى العرب من شؤم وتطير، فكانوا مثلًا إذا أرادوا أمرًا من الأمور (سفر أو زواج أو غير ذلك) نفروا الطير وزجروه فإن مال ناحية اليمين تفاءلوا ومضوا لتنفيذ ما يريدون، وإن مال ناحية الشمال تشاءموا وقعدوا عن إتمام ما قصدوا؛ ولذلك ركز الإسلام على أن التشاؤم أو التطير مجرد توهم أو توقع لحصول شر، وحيث إن التوهم أو التوقع شيء فطرى في النفس الإنسانية؛ فلذلك حدد علاجه في الحديث الذي أورده الحافظ ابن حجر في فتح الباري عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**ثَلَاثٌ لَا يَسْلَمَ مِنْهَا أَحَدٌ: الطِّيَرَةُ وَالظَّنُّ وَالحَسَدُ**»، قِيلَ: **فَمَا المَخْرَجِ مِنْهَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ**: «**إِذَا تَطَيَّرْتَ فَلَا تَرْجِعُ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقُ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ**».
[**فتح الباري ١٠/ ٤٩٦ كتاب الأدب باب ما يُنهى عن التحاسد والتباغض حديث رقم ٦٠٦٤**].

---

(١) سبق تفصيل هذا الدرس في الدروس العقائدية من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى .

أما إذا كان التشاؤم أو التطير سيقعد بصاحبه عن أداء دوره أو القيام بواجبه ظنًّا منه صدق ما اعتقد فقد أشرك.

قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه أبو داود والترمذي عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، ثَلَاثًا**»، قال ابن مسعود: «**وَمَا مِنَّا إِلَّا تَطَيَّرَ، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ**». [أبو داود في الطب (٣٩١٠)، والترمذي في السير (١٦١٤) ولفظه: «الطِّيَرَةُ مِنَ الشِّرْكِ»، وابن ماجه في الطب (٣٥٣٨)، وأحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه (٣٦٨٧، ٤١٩٤)، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح].

وإنما جعل ذلك شرك للاعتقاد بأن ذلك يجلب نفعًا أو يدفع ضرًّا، فكأنما أشرك ذلك مع الله؛ لذلك فالطيرة أو التشاؤم حرام؛ لأنها نوع من الأوهام والخرافات لا تكون إلا كمن ذهب الإيمان من قلبه، وفي عصرنا هذا نرى أصحاب العقول الفارغة تعلق أهمية ضخمة على رقم «١٣» مثلًا أو على مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم أو... أو... وكان رسول الله ﷺ يحب الفأل الحسن بالكلمة الصالحة، فذلك من حسن الظن بالله، وقد قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري وأحمد عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**لا طِيَرَةَ وَخَيْرُهَا الفَأْلُ**» (إذ فيه تقوية العزم، وبعث على الجد، ومعونة على الظفر)، قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: «**الكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ**». [البخاري في الطب (٥٧٥٤)].

وقال ﷺ أيضًا في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ الصَّالِحُ، الكَلِمَةُ الحَسَنَةُ**».

[البخاري في الطب (٥٧٥٦)، ومسلم في السلام (٢٢٢٣)].

ومن هنا فقد رخص الإسلام في الفأل ومنع الطيرة، فلو رأى الإنسان شيئًا فظنه حسنًا محرضًا على طلب حاجته فليفعل ذلك، وإن رآه غير ذلك فلا يقبله بل يمضي لسبيله».

[مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٥٦-٥٨].